إعراس الخليفة المأمون

- ٢ -

« مدينة بغداد »

امر ببنائها ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعهد ليلة العرس ، فسطاط العالم ، واكبر مدينة على وجه الارض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، مالم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة والوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتلبت من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغرائب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين انها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو مما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فان أحوال هذه الامة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : ان مدنية الامة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل الى الابد ، اذ ان هؤلاء البدو الذين حين فتحهم ممالك فارس والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها الى لسانهم ، وعلموها الامم الاوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم باكثر علومها ، وتأنقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الاندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُديم لهم فخراً لا يبليه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثان .

وقال أرنست رينان سيبويه علماء المشرقيات ما تعريبه باللغة العربية : خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينةً بها الى ذلك الحين ، ووصلت الى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً وأعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الارض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمانها شرف الانتشار ، وتُعدّ ان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد انهما لسان دعوة دينية ، او فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية ، لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الأطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقليا (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوا ، وروسيا حتى قازان .

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيول والبرتقاليون قد أخذوا الى لغتهم الفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوت جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

اولئك أقوامي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واذ جرى بنا الحديث الى الكلام عن لغة المأمون ، وهي لغتكم الشريفة أيها السادة : وكنا نظمنا منذ سنوات قريبة قصيدة في وصفها لحادثة معلومة في يومها ، ودعوناها (البدوية) رأينا أن نضمها في سلك محاضرتنا وان طال عليكم الوصول الى ليلة العرس :

« البدوية »

بالله يا نسمات الرند والبان ... من نجد جئتن ام من روض غسان
وهل لمستُن من ذات الدلال رداً ... ام حدثتكن من أقصى تلمسان
فان فيكن ريحاً من ملابسها ... فطيب ليلى بانفاس وأردان
وهل لثمتن من ليلي مباسمها ... إني عليها غيور ايُّ غيران
اني أغار عليها من صواحبها ... والحاسدات ومن انسٍ ومن جان
فان ليلي فتاةٌ لا مثيل لها ... صيغت من الحسن شكلاً ماله ثان
الى البداوة منسوب منابتها ... وان نميَت فهل فخر كمدنان
هيفاء لا قِصَرٌ فيها ولا طِوَلٌ ... تجرُّ أذيال إدلال وإتقان
غزالة تسحر الالباب نظرتها ... والمسك نكهتها لا ريح ريحان
تدنو لعاشقها تجفو لناكرها ... تثيب عدلاً بتنويل وحرمان
تشبَّه الحضريات الحسان بها ... وهل كذا بل جفنٍ جفنُ سكران
وكلُّ ثوب عليها ثوب فاتنة ... ولم يشن حسنها تبديل ألوان
وثوبها يقبل الازياء ما اختلفت ... وليس يُخلِقُه تكرار أزمان
حروفها لمعانٍ لا تطاولها ... في حسنها بنت يونان وروما
ألفاظها دررٌ تركيبها سُوَرٌ ... آياتها غُرَرٌ في كل قرآن
غزيزةُ الفضل لم يجحد محاسنها ... الاّ جهولٌ بإيجاز وتبيان
لها الفصاحة تُعْزَى اينما وجدت ... شهودُها مثلُ قسٍ او كسحبان
وفي البلاغة هل تخودُ تضارعها ... وأصلها صاعدٌ يسمو لقحطان
وبعض خدامها عبد الحميد ومن ... تلاه من اصفهانيٍّ وجرجاني
وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم ... رب النهى اليازجي الكوكب الثاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكم لجناتها في ارض لبنان من هائم في معانيها و بستاني
والشعر محتِدُها من ذا ينازعها فيه وكم تيمت من ندّ حسّان
بلابل الشعر غنتها بدائعه على عجائب أوزان وألحان
وربّة الشعر ناجتها مواهبها فانحط عن عرشها عرش لكيوان
وقلدت جيدها عقداً ترفّع عن عقود درّ وياقوت ومرجان
فكلّ شعر الى أدنى منازلها أعلى مراتبه مستشفع دان
وهل أُمية صالت واستقام لها ملكٌ وطرفٌ لليلى غير يقظان؟
هل استمان على تشتيت ما جمعت الا بالفاظها ذاك الخراساني
وهل سما عرش هارون الرشيد على ملكٍ بناه على عدل وعمران
والارض في ظلمةٍ للجهل حالكة وملكه مشرق من نور عرفان
الا وأعلام ليلى غير خافيةٍ في كل مأثرة من غير برهان ؟
وهل خليفته المأمون ردّ لنا علمَ الأوائل من أقوام يونان
الا بألفاظ ليلى غير ملتمسٍ في حسن تعريبها الفاظَ أعوان
ودولة الناصر العظمى باندلسٍ قامت بمدهش عمران وبنيان
في كل فن بسهم وافر ضربت ولفظ ليلى بآذان وأذهان
لم يتخذ بدلاً منها ولا سنداً لها سوى بعض تباع وغلمان
وكم وكم دول من بعدها درجت شامت بليلايَ في سر وإعلان
للشعر للعلم ليلى للفصاحة قد جاءت بأبدع مرويّ لإنسان
وفي السياسة والتدبير كم خفقت لحسنها رايةٌ من فوق تيجان
وفي الصناعات لم تعثر لها قدمٌ وفي الحروب تخطت كلّ ميدان
مجازها واشتقاق لا مثيل له ونحتُها معجزاتٌ كل بهتان
ما ضرّها انها والحسنُ عابدُها لها حواسدُ من أهل وجيران

.... انتهى ما يناسب الغرض منها .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

« فتوح المأمون وغزواته وأخلاقه وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه المأمون وحروبهما ، وطمع بالخلافة غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع ذاك ، وكادت تضعضع اركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، اذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وعزماً وسماحة ، وحلماً وشجاعة ، وعلماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا اليّ بالجرائم » وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالآداب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على ان يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كحنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المنجمين فجمع علماء عصره وأمرهم ان يضعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله المخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً واخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الاقدمون يرون ان كل درجة من درج الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الارض ، فلما مسحوا الاراضي المتساوية وحرروها وجدوا ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجعل القيم على خزانة كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو اول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ، ثم امر بانشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في ايامه ايضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرةً في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطانٌ في قصره ، وكان يوزع جوائز ونياشين على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .

« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه وأطباؤه وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أقمتَ خلافة وأزلتَ أخرى جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو اخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه الى ابنه عبدالله عندما ولاّه المأمون مصراً ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى ابوالطيب (يعني طاهراً) شيئاً من امر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، الا وقد أحكم وأوصى به ، وامر المأمون فكتب به الى جميع العمال .

اما ابنه عبد الله هذا فكان ايضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الابيات المشهورة .

نحن قوم تلينا الحدق النجـ ـل على اننا نلين الحديدا
طوع ايدي الظباء تقتادنا العيـ ـن ونقتاد بالطعان الاسودا

وكان شعراء المأمون اباالعتاهية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخليع ابن ياسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرجس بن بختيشوع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويعقوب الكندي وابو بكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا لوقا البعلبكي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخواه وماشا الله اليهودي وابن منصور والجوهري واضرابهم ، ومن القُصّاص الاصمعي وابو عبيدة ، واما العلماء والنحاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والاخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن اكثم وابو عبد الله الواقدي واحمد بن ابي دؤاد ، ومن الفقهاء الامام الشافعي والامام احمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا الى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همته الصاعدة المنيفة لاحتجنا من الوقت الى شبر ومن اللفظ الى معادن الدر .

كان المأمون ربعة ابيض جميلاً ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها الشيب . فان فاخرت الام بقديها وهي تفاخر دون شك ، فهذا قديكم أيها السادة .

شرف ينطح النجوم بروقيه وعز يقلقل الاجبالا

« الحسن بن سهل حمو الخليفة »

كان كريماً عالي الهمة ولاه المأمون جميع البلاد التي افتتحها طاهر من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه لا عجب اذا كان اغنى غني في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البيان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقب لها او هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت للسنة ١٩٢ هـ وعُقِد عليها للمأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكان عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ، تلك ان المأمون تزوجها لمكان ابيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم اعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رحماً من للمأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفى الحسن بذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شرفاً ، فلا بد من ان يكون اختيار المأمون بوران لجمالها او لعقلها وعلمها او لكليهما معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج الا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب — وحرُّ بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة ثما فوقها ويرون كمال فتوتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والامراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة ام لسبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون الاولون ذكر كثير من امثال هذه الاحداث الهامة وأسبابها ، بيد ان لها شأناً عظيماً في اعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن واخلاق اهله وسائر احوالهم ومدنيتهم ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه او الحصول عليه من مظانه في كتب التاريخ ، فحسبنا ان نشير الى ذلك هذه الاشارة حتى اذا اتفق لاحد الادباء العثور عليه في تضاعيف القصص او في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

« ليلة العرس »

كان الحسن بن سهل مع اهل بيته في معسكره بفم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون اليها لثمان ليال من مضت رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين يتقدمه العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء وكبار العباسيين من اهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرُه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون امر عسكره بالمسير امام عسكره ، وترجل حتى اقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلهما ، فقابله الخليفة بأنسه وبشاشته ثم امره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا الى فم الصلح خرجت المدينة باجمعها لملاقاة المأمون وكان يوماً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مشهوداً لم ير مثله الراؤون ، فنزل الخليفة عن جواده تكتنفه العظمة والجلال وتبسم له ثغور الاماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشّى ، فدخل قبةً فرشت ارضها بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرته عظماء الدولة واكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون ، وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت الوان الطعام في الاواني الذهبية وانشد المنشدون وتبارى المغنون ، ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفّت اليه (بوران) فلما دخل قبتها كان عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته لأبيه و (زبيدة) امرأة هرون الرشيد ام اخيه الامين و (جدة بوران) ام ابيها ، وكان قد أوقد عندها شمعة عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة منّ ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلبيًا ، وفرشت ارض القبة بحصير منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئه بقدومه نثرت جدتها عليها الف درّة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلئ على قدميه قال قاتل الله ابا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على ارض من الذهب

ثم امر بجمعها فجمعت فأعطاها بوران وقال سلي ما ترغبين ، فلم تنطق بحرف ، فقالت لها جدّتها (كلي سيدك فقد أمرك) فقالت : اسأل سيدي الرضاء عن عمه الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكان ذنبه عظيماً — فقال قد فعلتُ ، فقالت : واسأل سيدي الاذن لسيدتي ام جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد — فقال أذنتُ ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤية الأموية المشهورة ، ولعلها مما غنمه العرب من الروم في دمشق او مما وقع لهم من الفرس عند فتح المدائن ، ثم استولى عليها العباسيون في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأمويين اذ من المعلوم ان الدولة الأموية لم تصل الى ما بلغته الدولة العباسية لذلك العهد ، من رقة العيش في المأكول والمشروب والملبوس والمفروش والماعون وسائر عوائد الترف وأحوال الجسد والنعيم ، فليس بالمعقول ان يتزيا العباسيون بزيهم او ان يلبسوا ملابسهم وبين البيتين من البغضاء ما هو معروف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبينما كانت ام الحسن بن سهل تنثر اللآلئ على المأمون وبوران ، كان والد بوران ينثر على الهاشميين والقواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة او دار او مزرعة او جارية او فرس او غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي الى وكيل أرصد لذلك فيدفع اليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعةً او ملكاً او جارية او غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير الى عشرة آلاف ، ثم انتقل الى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان تُعدُّ له فيها وللجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروب وسائر اسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه او لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم او خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بتجهيز الحراقات (السفن) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد الى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين الفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزيينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلماء كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها الا اصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكاسات تُدار .

وفي فمه ناي يُدير سُلافةً هي السكر الا انه لا يُحرَّمُ
«وفي فمها شبابة تبعث الهوى ونحن سكوت والهوا يتكلم»

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حللاً ما وراءها لمتطلع غاية ، وكان الحطب المُعَدّ للوقيد بدار الطبخ مائةً واربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفنيَ الحطب لليلتين فأوقدوا القصب يصبّون عليه الزيت .

اما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم عن وصفها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما قبابها ، فمن مجصص بالجص الابيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطليّ نصفه السفلي بالاخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب الضارّ وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم يبدو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة الى أقاصي مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من بركٍ عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من افواه حيتان او سباع او نسور او ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت اشجارها وتغنت أطيارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في مماش كأنما ارضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درابز بنات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ، ونمت حولها الازاهر والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشامخة والاروقة المرتفعة والجواسق المتقة ، ذوات الساحات المترامية ، والصحون الفساح والافنية الرحاب ، والاندية العظيمة طيقانها أبواب وابوابها حيرة الالباب ، قد أرخيت عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها اجنحة الطواويس ، وفُرشت ارضها بأنواع الفسيفساء تحاكي ازاهر الجنان ومتعادي الحيوان ، من أسود ونمور وغزلان برخام متعدد الالوان ، يخالطه خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل بهوٍ بركة او برك تنساب اليها المياه الصافية على ملون المرمر كاللجين الذائب ، والسمك على اختلاف الاشكال والالوان تصعد سيفي مائها وتنحط وتعوم كما يعوم فيها البط ، وقد رُقشت حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه ازهار الربيع ، ورُفعت سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على اعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد أحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنها بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبابها على قناطر وحنايا واضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالقلائد في اعناق الحسان ، وقد قعدت على اساطين وسوارٍ ركزت على قواعد من الصوان ، وتقنعت باقداح كالنرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه الى إمتاع النظر بأعاليها الا بانقلاب رأس الناظر الى آخر المستطاع ، وقد طليت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الابصار ، و يأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج انواراً يرتد عنها الطرف كليلاً .

وكانت لا تقع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تناهت في الظرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنهما كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رُفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار الى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكت بحفرها ورسومها جبائك الغمام ، او اجنحة الطيور او غلائل الحسان او ظهور السمك والحيتان ، او صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعّد ومفوّف ، ومسيّر ومنمّر ، ومكفوف وملفوف ، الى أشكال والوان يعجز وصفها ، و يضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتمثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل نادٍ روضة وغدير وغرف ومقاصير ، وسجوف مرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة وارائك مصنوعة وحجال منصوبة ومجالس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قائمة وابار بقي مبثوثة وخواب مسنودة ونوجسيات منسوقة ، وأوان مختلفة الاشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقماقم ماء الورد الى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت ارضها بوران اعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت .

وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور اياماً متوالية ، و كل الذي وصفناه ان هو الا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرَ له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالمأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بخيلا .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الأموية الثانية في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما تنشرح له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، و يقال عنده لا عطر بعد عروس .

عضو المجمع العلمي العربي
قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net